الربيع العربي، آخر عمليات الشرق الأوسط الكبير لحسن محمد الزين: دراسة تحليلية

الأستاذ مظفر عالم
قسم الدراسات العربية، جامعة إيفل، حيدر آباد

خلفية الموضوع

إن الوطن العربي لقد ظل خارج موجات التغيرات و التحولات الديمقراطية التي تمتعت بها دول العالم من شرق آسيا إلى شرق أوروبا و إلى أمريكا اللاتينية و حتى بعض البلدان في المنطقة مثل تركيا و إيران، و هي أجبرت الدوائر السياسية و الأكاديمية ، على النطاق العالمي ، على الاعتقاد أن القيم الديمقراطية ربما تعارض الثقافة العربية الإسلامية. غير أن الثورات العربية التي اجتاحت عددا من البلدان العربية في نهاية العقد الأول من القرن الجاري و التي اشتهرت باسم «الربيع العربي» كانت بمثابة هزة عنيفة، زعزعت كيانات الأنظمة السياسية في الشرق الأوسط.

ففي أعقاب حالة الفوضى التي تبعت "الربيع العربي المزعوم" اعتنت الكمية الضخمة من الكُتّاب العرب و العجم بهذه القضية الحساسة وكشفت أقلامهم الستارعن التداعيات السياسية والاجتماعية التي جاءت بعد هذه الثورات، و كان من بينهم حسن محمد الزين، أستاذ العلوم الطبيعية من جامعة السودان . و هذه الورقة تحيط بما أورده العالم الكبير المذكور في كتابه الشهير« الربيع العربي: آخرعمليات الشرق الأوسط الكبير».

نظرة على الكتاب : و هذا الكتاب حسب قول المؤلف « مقاربة بحثية توثيقية تعتمد على ٣٥٠ مصدرا للمعلومات من أهم الوثائق و الدراسات و المقالات العربية و الأمريكية و الدولية و في منهجية تحليل سياسي جديد معروفة بـ « ثلاثية الأبعاد». طبع أول مرة عام ٢٠١٣م من دار القلم الجديد، بيروت و يشتمل على ٢٨٢ صفحة. فالكتاب ، مضافا إلى

مقدمة، و تمهيد في البداية ، والخلاصة، و الملحق و لائحة المصادر و المراجع في النهاية ، ينقسم إلى ثلاثة أقسام. ألقسم الأول عن عملية الربيع العربي، و القسم الثاني غربلة وتنقيح ٤٠ قطعة من المعطيات الموثوقة ، و القسم الثالث عن أسباب الربيع العربي.

أراء متضاربة عن هذه الظاهرة

تضاربت آراء الباحثين العرب عن هذه الظاهرة العربية، فتحدث بعضهم عن تدريب الناشطين العرب قبل طلوع هذه الظاهرة لسنوات، و تحدث بعض الآخرين عن صفقة بين الإخوان المسلمين و الإدارة الأمريكية، و ذاك يتساءل عن معقولة لحظة البوعزيزي و دورها في تفجير الثورة التونسية، و هناك من قال إن مخطط قصف ليبيا أعد منذ عام ٢٠٠٩م مستندا إلى وثائق للتلفزيون الفرنسي Channel Plusو قال الآخرون إن الرئيس التونسي المنصف المرزوقي [١] كان يعمل على مؤسسة وقف الديمقراطية National Endowment for Democracy التابعة للخارجية الأمريكية أو هي من أوصلته لسدة الرئاسة التونسية، و هناك من وجد أن مشروع خط نابوكو للغازات [٢] له دور مركزي في خلفيات مخطط الربيع العربي.

نظر إلى هذه الظاهرة الكاتب و الإعلامي المصري محمد حسنين هيكل بنظرية المؤامرة، و هو من أصحاب الاتجاه القومي العربي، كما نظر إليها المفكر المصري الدكتور طارق رمضان بنظرية الانتفاضات تحت التأثير، و هو من الاتجاه الإسلامي. أما الشخصيات و التيارات و القوى القومية مثل مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت نظرت إليها بنظرية العفوية والتلقائية.

آراء متضاربة عن تسمية الحراك العربي

كما اختلفت آرائهم عن تحديد طبيعة الحراك العربي و تسميته، فرأى بعضهم أنها « ثورات عربية» أو « انتفاضات عربية» و ذهب الآخرون إلى أنها « صحوة عربية» أو « صحوة إسلامية»، و هناك من وصفه « الربيع العربي « أو « الربيع الإسلامي» و مؤامرة أمريكية لتقسيم العالم العربي- سايس بيكو جديد « أو «نهضة حداثية عربية رقمية» أو « انتفاضات تحت التأثير» أو « الربيع الأمريكي» و ما إلى ذلك.

تعقيد المسألة : إن الآراء المتضاربة للعلماء و الباحثين العرب عن هذه المسألة جعلتها

معقدة و لم يتمكن الذهن العربي من الوصول إلى ارتباط الربيع العربي بمشروع أمريكي جاهز، و حسب المؤلف « لا يجوز للعقل العربي نفي أو تأييد أي قراءة تفسيرية للحراك العربي قبل يطلع تفصيليا على مجموعة من الوثائق و المستندات ذات الصلة»، فقدم المؤلف، على سبيل الذكر، لائحة الوثائق تحتوي على ١٤ وثيقة و لا الحصر، و معظمها يتعلق بمختلف وزارات أمريكية. فهناك عشرات من الوثائق و المعطيات و التي من خلالها توصل إلى النتيجة بأنه «دون مطالعة هذه الوثائق سيبقى العقل العربي أسيرا يتخبط في سجون و كهوف الفجوات المنهجية والمعرفية التي سببت له التناقض و القصور في تحليل الثورات و نجم عنها من تداعيات». و في معرض الإشارة إلى النقائص أعرب:» و قد كتب في تفسير و تحليل زلزال « الثورات العربية» آلاف المقالات، و صدرت مئات الكتب ، لكنها منيت بمعظمها بالإخفاق في فهم الظاهرة بسبب عيوب منهجية تحليلية تنتمي لمنظومة « ثغرات التحليل و عيوب المحللين» [٣].

الأحداث المتسلسلة

حاول المؤلف في تمهيد كتابه أن يبرز بعض التقاطعات بين الصحوة الإسلامية و الربيع العربي المربوط بالمشروع الأمريكي الجاهز، استخرج هذه التقاطعات من تاريخ العرب عبر القرون و استعرض الأحداث و الوقائع المتصلة بالصحوة الإسلامية التي حلت في الشرق الأوسط ابتداء من انتصار الثورة الإسلامية في إيران عام ١٩٧٩م، مرورا بالمعارضة التاريخية لحركة الأخوان المسلمين للأنظمة العربية (١٩٥٠-٢٠١٠م) ، و صولا لهزيمة أمريكا و الحلف الأطلسي على يد الإسلاميين في أفغانستان و العراق (٢٠٠٣-٢٠١٠م) ،وصولا لانتصار المقاومتين اللبنانية و الفلسطينية في مواجهة الكيان الصهيوني و بالأحرى انتصارات حزب الله ضد إسرائيل في ٢٠٠٦م و انتصارات الحماس ضد عدوان غزة عام ٢٠٠٩م. فكان المشروع الأمريكي جاهزا لاحتواء هذه الصحوة الإسلامية. وقد حلل صاحبنا هذا الإدعاء في ضوء وثائق هيئات الاستخبارات القومية الأمريكية و بيانات المفكرين و المحللين الأمريكان.

بعد ذلك سرد وقائع الثورات العربية التي بدأت من تونس مع إحراق الشباب البوعزيزي لنفسه و تحولت على احتجاجات مطلبية و نقابية إلى الوعي لإسقاط النظام، ثم انتقلت الأحداث إلى مصر بأثر موجة « الدومينو» و بعد نجاح عمليات الثورات العربية في كل من

تونس و مصر، انتقلت موجة «الدومينو» نحو اليمن الذي كان مشتعلا منذ العام ٢٠٠٦م ليصل إلى ليبيا و أخيرا سوريا حيث اندلعت احتجاجات من مدينة درعا. و في نهاية المبحث أعرب صاحب الكتاب أنه» هذه ليست هي المرة الأولى التي تتقاطع فيها المصالح الأمريكية مع مصالح بعض التنظيمات الإسلامية الجهادية مع الولايات المتحدة و الأنظمة العربية في الثمانينات على صفقة سياسية عسكرية مشتركة لمواجهة الاتحاد السوفيتي والصين في أفغانستان (١٩٧٩م) أيام الحرب الباردة و ضرب إيران بالعراق (١٩٨٠م) مقالب الهدنة مع الكيان الصهيوني». [٤]

كتب الأدباء العرب على الأقل ٥٠٠ كتابا و مقالة صحفية لتفسير حراك عام ٢٠١١م و لكنهم اختلفوا في تحديد نوعية التحليلات السياسية مع أن بياناتهم مبنية على أدلة و مؤشرات و معطيات و قرائن معقولة وواقعية ، ويمكن تلخيص اتجاهاتهم في ستة مذاهب.

اتجاهات رائدة

الاتجاه الإسلامي: اعتبر أصحاب هذا التيار أن هذه الثورات عفوية تلقائية و هي عبارة عن صحوة عربية شعبية و دوافع إسلامية.

اتجاه المؤامرة : تداخل فيه الكتاب البارزون كالإعلامي المصري توفيق عكاشة ، عضو ثيادة الحزب الوطني المصري المنحل ، ووصل الأمر ببعض الأمنيين العرب إلى حد أن ضاحي الخلفان قائد شرطة دبي ادعى أنه لديه معلومات موثوقة عن تحضيرات لثورات ستحصل في الخليج بدعم غربي هدفها إيصال الإخوان المسلمين في السلطة، و أيده في هذه الفكرة بمنطلقات مختلفة بعض كتاب اليسار العلماني و القومي العربي كالكاتب الأردني ناهض حتر صاحب مقالة « من الربيع الأمريكي إلى القطبية الجديدة» و الكاتب المصري سمير كرم صاحب مقالة « لا هو ربيع و لا هو عربي» و عشرات الكتاب العرب الآخرين.

اتجاه النهضة العربية: اعتبر أصحاب هذا الاتجاه أن فجر العروبة قد ولد من جديد و يمثله مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت.

اتجاه توفر الأرضية العربية الثورية و الاختراق الدولي: يجمع هذا الاتجاه بين عفوية الدوافع و تلقائيتها و توفر أرضية ثورية جاهزة من جهة و بين وجود تقاطعات وخيوط دولية

و إقليمية، يمثل هذا الاتجاه المفكر الإسلامي المصري الدكتور طارق رمضان ، حفيد مؤسس الإخوان المسلمين الإمام حسن البنا، و الباحث التونسي الدكتور حسن في كتابه « وثائق و يكيليكس و أسرار ثورات الربيع العربي» و الكتب اللبناني الدكتور نديم منصور في كتابه « الثورات العربية بين المطامح و المطامع» و غيرهم الآخرون.

اتجاه تقاسم النفوذ الدولي و تقسيم العالم العربي: يرى هذا الاتجاه أن الثورات العربية عملية أمريكية غربية تركية قطرية لتقاسم النفوذ و المواقع الاقتصادية و السياسية و العسكرية والجيو سياسية ، جرى تدبيرها على غرار سايس بيكو جديد مستغلا الواقع العربي المتحفز للثورات محركا له عن بعد. يمثله الإعلامي المصري محمد حسنين هيكل و الكاتبة اللبنانية غدة اليافي و عشرات الكتاب الآخرين، كما أيد هذه الفكرة بعض الخبراء الغربيين أيضا.

الاتجاه الليبرالي العربي: يضم هذا الاتجاه عددا من الليبراليين العرب الذين وجدوا أن القيم الليبرالية العولمية بدأت تنتشر موجة ديمقراطية عربية، و عبر عن هذا الاتجاه الباحث اللبناني علي حرب في كتابه « ثورات القوة الناعمة في العالم العربي» و عشرات الكتاب العرب الآخرون.

و بعد تقديم الاتجاهات الرائدة قام المؤلف بتقييم تلك الاتجاهات و أشار إلى بعض النقائص و المعايب التي وقعت فيها الغالبية من المحللين العرب، تنص لائحة العيوب على دراسة الأحداث بصورة منفصلة دون ربطها مع المعطيات السابقة و اللاحقة ، و معلومات المحللين الناقصة عن الأحداث ، و تجردهم عن مهارة التفكير فيها، و معالجة البيانات على أساس الذاكرة، و تحليل الأحداث بذهنية التوقعات و التمنيات ، و اختيار الأنماط الخاطئة، و المرجعية الفكرية و التحيزات العقائدية وغياب الحس النقدي في تحليل الأحداث و العيوب الأخرى.

القسم الأول من الكتاب يعالج تسمية هذا الزلزال العربي بمصطلح أو مفردة « الربيع العربي» و بقول المؤلف استعمل مارك لينش أول مرة هذا المصطلح بمقالته نشرت في مجلة « سياسة خارجية» بتاريخ لافت جدا هو ٦ ديسمبر من عام ٢٠١١م بعد مرور أقل من أسبوع على بداية شرارة الاحتجاجات في تونس و قبل سقوط نظام ابن علي،كانت مقالته معنونة بـ «

الربيع العربي الأوبامي» جمع بهذا الشأن آراء مؤيدة للمصطلح و معارضة له و ذكر الكتابات الهامة المنشورة بهذا المصطلح في أمريكا أو أوروبا في تلك الأيامن كما تحدث عن مداخلات و مخرجات عن هذه العملية و أوضح الفرق بين مفردة « عملية» و مفردة « ثورة» و أضاء المخططات الأمريكية لهذه العملية و الخطوات التي اتخذها الإدارة الأمريكية، نقل القرار الرئاسي الأمريكي الذي أعد المشروع المرقوم ١١ و الصادر في ١٢ أغسطس عام ٢٠١٠ ، و نقل بيانات قدمها مجلس الاستخبارات الأمريكية عام ٢٠٠٩م تحت عنوان « اتجاهات عالمية لعام ٢٠٢٥م.

أهداف : و حسب المؤلف كان الربيع العربي يهدف إلى تحديد السياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط ، إعادة إنتاج الدور الأمريكي في المنطقة، توجيه و تحويل رصيد الإخوان المسلمين لترميم المحور الأمريكي في الو طن العربي، ضرب جماعة القاعدة و تيار السلفية الجهادية، تقليص النفوذ الاقتصادي والسياسي لمحور البريكس و خاصة الصين و الروسيا في قارات إفريقيا و آسيا ، ضرب محور المقاومة الذي تقوده إيران في المنطقة من خلال إثارة الفتنة السنية و الشيعية و إسقاط النظام السوري من هذا المحور و إخراج حركة حماس منه، حماية الكيان الصهيوني من خلال تغيير البيئة الإستراتيجية و إحداث هجرة معاكسة للناشطين الإسلاميين من الغرب إلى الشرق تقليصا لحجم الكتلة الديموغرافية والتنظيمية للجماعات الإسلامية الناشطة في الغرب. كما كان هادفا إلى نشر الدبلوماسية الرقمية، إبدال السلطات الصلبة بالقوات الناعمة، تثبيط الإسلام السياسي و بناء المنظمات الديمقراطية وفق الأسلوب الأمريكي العريق في جذور الشعب.

نتائج : و رأى المؤلف بأن أمريكا حصلت من هذا المشروع بعض النتائج المنشودة و منها : عدم المساس بالكيان الصهيوني، الحفاظ على مصادر الطاقة و تدفق النفط الخليجي نحو الأسواق العالمية، و توتير العلاقات العربية –الإيرانية من خلال إشعال الفتنة السنية-الشيعية، و إرباك الروسيا و الصين و محور دول البريكس جراء هذه الزلزال الجيوستراتيجي.

و القسم الثاني يتضمن ٤٠ قطعة من المعطيات الموثوقة التي تم التحقق من مصداقيتها و تشمل على مرحلة تحضيرات و مخططات ما قيل اندلاع الثورات، و دراسات معهد السلام الأمريكي و مؤسسة رائد الدفاعية، وصولا إلى القرار رقم ١١ الصادر عن الرئيس أوباما،

مرورا بوثائق ويكيليكس التي سبقت الثورات بأسبوعين فقط، و لحظات اندلاع الثورات و معطياتها، و تصرفات و مواقف اللاعبين الدوليين و المحليين، و نتائج و تداعيات هذه الثورات.

تضم القطعات الرئيسية آراء فوكوياما، مفكر أمريكا الأول الذي بشر للتحولات الديمقراطية العربية عام ٢٠١٠م ، و آراء البروفيسور دانيال برومبيرغ، رئيس معهد السلام الأمريكي، خطاب الرئيس الأمريكي أوباما بعشرات المؤسسات العربية والأمريكية عام ٢٠١٠م، و قرارات مؤتمر شبكات الانترنت العربية في سبتمبر عام ٢٠١٠م تحت الرعاية الأمريكية ، لغز وثائق ويكيليكس قبل اندلاع الثورة التونسية، تقرير المجلس القومي للاستخبارات الأمريكية عن استلام الإسلاميين حكم الأنظمة العربية عام ٢٠٠٩م، الإستراتيجية الأمريكية لتفكيك الحركات الإسلامية وتصنيفها بين معتدلة و متطرفة و بموازاتها بناء الشبكات الديمقراطية الليبرالية، دور المفكر السياسي الأمريكي جين شارب ، رئيس قسم الكفاح اللاعنفي في الاستخبارات الأمريكية في الثورات العربية، نقل التركيز الأمريكي إلى تونس للدخول بوابة المغرب العربي بعد فشلها في نشر الديمقراطية في العراق بوابة المشرق العربي، تجهيز الثوار العرب في المصانع الأمريكية الديمقراطية وتدريبهم قبل اندلاع الثورات بـ خمس سنوات، دور تركيا كنموذج إسلامي صوفي حداثي في إطار إستراتيجية بناء الشبكات الإسلامية المعتدلة، دور قطر كمركز لإسناد الاستراتيجيات الأمريكية للتحولات الديمقراطية العربية، تأهيل حزب الإصلاح اليمني ودمجه بالنظام الجديد، و أخيرا الثورات العربية و صعود الصين و الروسيا و البريكس.

و القسم الثالث أي القسم الأخير من الكتاب دراسة شاملة مبنية على أسباب الثورات العربية مستخدما المنهجية الحديثة التي تعالج القضايا من زاوية اقتصادية و جيوستراتيجية و سياسية، فهي تعالج التحضيرات و المشاريع التي سبقت الثورات و تحلل اللاعبين الذين كان لهم القدرة على التحكم و السيطرة بعد الثورات من خلال الاستراتيجيات الجاهزة و تحريك الأدوات اللازمة.

نجمت هذه الثورات عن صعود الصين و الروسيا و دول البريكس و غلبتها على أمريكا و الغرب بسبب تحالف قارة أوراسيا القديمة أي الاتحاد بين الصين القوية اقتصاديا و الروسيا

القوية عسكريا، و لسبب صعود « محور البريكس» تورطت أمريكا و الغرب في النزاعات و الصراعات العسكرية مع العالم الإسلامي ابتداء من أفغانستان و العراق ووصولا إلى إيران و باكستان و الصومال و اليمن، و قد كلفت آلاف مليارات الدولارات و عشرات آلاف القتلى و الجرحى، و استنزفت أمريكا و الغرب بشريا و ماليا و اقتصاديا.

وبهذه التغييرات أدركت أمريكا أن تتخلى عن الديكتاتوريات في الوطن العربي و اتخذت القرار بإطاحة الحلفاء في تلك الأراضي و فق المتغيرات الجيوستراتيجية، فاختارت تونس و الدول العربية الأخرى لإطلاق التحولات الديمقراطية العربية ظنا بأن التحولات الداخلية عبر الثورات الناعمة أفضل بكثير و أقل كلفة من التغيير الخارجي بالقوة العسكرية، لتحقيق الهدف المنشود جهزت شريط الأدوات ودربت جيلا من الناشطين العرب على التحول الديمقراطي و تكتيكات إسقاط النظم.

خلاصة القول

اتضح مما سبق بأن الغرب و بالأحرى الولايات المتحدة الأمريكية حققت بعض الأهداف المطلوبة من هذه الثورات العربية المحدثة و فشلت في الحصول على أكثر ما استهدفت اقتصاديا و استرا تيجيا، و بالعكس دول «محور البريكس» طلعت من الغيوم الكثيفة و برزت برعاية الصين و الروسيا بشكل كتلة قوية اقتصاديا و عسكريا، تكاد شمس العالم أحادي القطب تغرب و يطلع العالم متعدد الأقطاب. إما الوطن العربي بوجه عام و الدول التي أصبحت ضحية للثورات و استبدلت فيها النظم خسرت خسائر فادحة على جميع الأصعدة، ولم تقتصر تأثيرات هذه الثورات إلى العالم العربي و إنما امتدت شبكتها إلى العالم الإسلامي كله وأضرت مصالح الأمة بأجملها دون تفرقة بين هذا وذاك.

الهوامش والمراجع

١. هو رئيس الجمهورية التونسية الثالث منذ ٢٠١١ وحتى ٢٠١٤، وهو أول رئيس في العالم العربي يأتي إلى سدة الحكم ديمقراطيا ويسلم السلطة ديمقراطيا إلى المعارض المنافس بعد انتهاء مدة ولايته، وقد اتصل هاتفيا بمنافسه وهنأه بفوزه. وهو مفكر وسياسي تونسي ومعارض سابق لنظام زين العابدين بن علي ومدافع عن حقوق الإنسان، ويحمل شهادة الدكتوراه في الطب، ويكتب في الحقوق والسياسة والفكر.

٢. خط أنابيب غاز نابوكو Nabucco pipeline هو خط أنابيب لنقل الغاز الطبيعي من تركيا إلى النمسا، عبر بلغاريا، رومانيا، والمجر. الخط يجري من أرض روم في تركيا إلى باومگارتن أن در مارش، وهي المركز الرئيسي للغاز الطبيعي في النمسا. البعض يعتبر خط الأنابيب محاولة لتحويل تجارة الغاز الطبيعي من آسيا الوسطى بعيداً عن المرور عبر روسيا. المشروع مدعوم من الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة. وتصف روسيا مشروع نا بوكو بأنه "مشروع معادي لروسيا.

٣. ص:١١

٤. ص:٢٥